تحولات السرد العربي، نحو «النوع الجامع»

يوسف نوفل

■ ليس من المستغرب أن تظفر الفنون بطفرات وتطورات مستوحاة من طبيعة عصرها، وإيقاعه، وكما أنه ليس بمستغرب أن يتبدل حال السرد العربي من حال قديم إلى حال حديث، حيث كان السرد قابعاً على وضعه السكوني الموروث العائد إلى إهمال النقاد إياه وانصرافهم عنه إلى جنس أهم، وهو الشعر، فإننا لا نستغرب تقهقُر موقعه ليحتل منزلة فصائل النثر الأخرى الرائجة آنذاك، من: خطابة، وترسل، واحتجاج حديث «أي مخاطبات الناس»، ومن: عهود، ووصايا، ورسائل، وأمثال وحكم، وسجع كهان، وعلى رأسها جميعاً الخطابة والعظات، ثم المقامة والسرد الشعبي، وبذلك انزوى السرد – قديما – في ركن مكتفياً بمكانته لدى الوعاظ، وكتاب السير والوصايا والسمار ،ورواة القصص والسير الشعبية وألف ليلة وليلة.

ولأن الأدب مرآة التحولات، فالسرد أولى ألوان الأدب بالتفاعل مع تلك التحولات، وهكذا انعكست طبيعة المجتمع على فنونه وصبغها بصبغته، فانعكست سمات كل عصر على فنونه انعكست، سمة «عصر الإيمان»، في العصور الوسطى، وسمة «عصر المغامرات»، في القرن السادس عشر، وسمة «عصر الاستنارة والاعتماد المطلق على العقل»، في القرن الثامن عشر، وسمة «عصر الإيديولوجيا»، في القرن التاسع عشر، وسمات «عصر الذرة – عصر التحليل – عصر الهزيمة «كما قال كولن ولسون» – عصر القلق – عصر الأرض الخراب «كما قال إليوت» – عصر الغموض والتعقيد والتجارب – عصر التساؤل – عصر التفتيت والتفكيك والتحليل استيحاءً من الفيزياء – عصر ثورة المعلومات والاتصال والفضائيات، في القرية الصغيرة قرية القرن العشرين، والتزاوج بين الكمبيوتر والعقل البشري وظاهرة «مسح الذاكرة»، و«إعادة النسخ»، وتزاوج الخطاب الإعلامي والخطاب الأدبي وتقارب الفنون بأكثر من تقارب العلوم والآداب، ثم نما ذلك كله في ما انصرم من عقد من القرن الحادي والعشرين.

وانتهى أمر ذلك الفن السردي إلى تفتيت السرد وتحليله كما يفتت العلم الذرات إلى عوالم صغيرة: بناءً وشكلاً، وأنماطاً بشرية، ومواقف، وأحداثاً، ولغة ومفردات، وإلى التجريب، ومجافاة العقل والمنطق، ونبذ كل ما هو متفق عليه والجمع بين المتناقضات، واهتزاز ما هو مقدس، أو من المثل العليا، وتحول الزمن من ميكانيكيته المحكومة بعقارب الساعة وبندولها، إلى زمن ذاتي لا يرتبط بحركة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وتجاورت منجزات الإيديولوجيا وعلم النفس، حيث جبل الثلج الظاهر من بين خمسة أو ستة أنفس مغمورة مطمورة ونظرية التطور والتغيرات الكبرى التي صاحبت وأعقبت الحربين العالميتين الكبريين، وبخاصة الثانية، تلك التي اقترنت بظهور الرعب النووي وتطبيقه الوحشي في هيروشيما وناجازاكي، وما تلاها من الحروب الإقليمية العديدة المتعاقبة: سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً ودينياً وروحياً، واضطرابات نفسية، الأمر الذي استحق وقفات أمام ما أعقب الحرب العالمية الثانية، من أسلحة السيطرة على العقل والتحكم في التصرفات، ومعالجة المخ، ومسح الذاكرة، وتجارب أطباء النازي واليابانيين في العقاقير، والتنويم المغناطيسي، ثم الاغتيال المبرمج في المخطط الأمريكي، وما عرف بـ «قصاصة الورق»، والتحكم في الأحاسيس والعواطف والرغبات، وما إن خمدت نيران الحرب العظمى الثانية حتى عم تغير في سائر ألوان الكتابة، والتفكير، والفلسفة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، حتى كان عام ١٩٦١م غزو الفضاء، لتهب ثورة على القوالب، ولتتقابل، بل تتصادم نظريات قديمة مع نظريات حديثة.

هكذا اتسعت أبواب السرد لتجمع في فضاءاتها : الحدوتة، والتحليل والعلوم التطبيقية والرياضية، وعلم النفس باكتشافاته الحديثة والموسيقى في تأثيرها على المشاعر، والتصوير في تحديد حركة الزمان، أو تجميدها بتنوع ألوانها وظلالها والرمز، حتى قام السرد باستيعاب تلك التغيرات لتحتل الأفكار منزلة أكبر من المنزلة التي كانت للأشخاص ولتتقارب المواقف التي تقوم عليها نظرية الأنواع الأدبية من :

الموقف الغنائي، ووظيفته التعبير وضمير الملائم ضمير المتكلم «أنا» وذلك في القصيدة الغنائية، وهو صوت الشاعر متجهاً إلى نفسه بالحديث، والموقف الملحمي، ووظيفته التمثيل، وضميره الملائم ضمير الغائب، «هو» وذلك في الملحمة، وهو صوت الشاعر للجمهور، والموقف الدرامي، ووظيفة النداء والدعاء وضميره الملائم: ضمير المخاطب «أنت» وذلك في الدراما، وهو صوت الشاعر بين أشخاص يتخيلهم.

ولم يعد أمر النوع الأدبي أسير تلك الصرامة المتمثلة في الصفاء النوعي منذ النقد الإغريقي، بل التفرقة بين أشكال النوع الفني الواحد، حتى كان أثر نظرية «روح العصر» مع نظرية التطور وآراء بندتو كروتشه، ومن هنا عبر السرد من درجة «الصفاء والصرامة النوعية» إلى جنوح نحو «إلغاء الحدود النوعية» ثم إلى مرحلة ثالثة هي «الموازاة الفنية» وفيها مرونة التداخل، وسلاسة الامتزاج، والنظر إلى الحدود الفاصلة بين الأنواع الأدبية مع الاتساع الهائل في حجم الجمهور المتلقي ونوعياته ورغباته، وولادة أنواع، واستحداث أخرى أو تطويرها، وهكذا وجدنا «شعرية القصيدة السردية» و«تشعير الحكاية في القصيدة السردية» و «الوصل بين الجنسين» و«الكتابة عبر النوعية» وتمثل ذلك في تحولات السرد في خطوات :

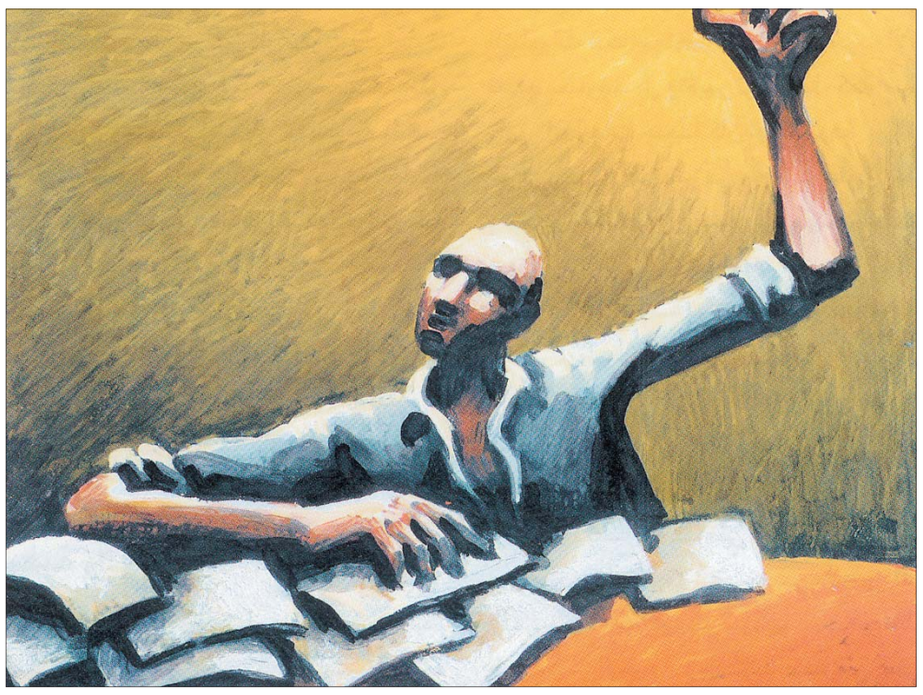

– «القصيدة المفصلية» بتقسيم القصيدة إلى١ فصول.
– ٢ بزوغ صوت الحوار منافساً السرد الشعري.
– ٣زحف التاريخ والسير والمذكرات والبيانات والتقارير وفن الرسالة التراثي، والأغنية إلى قالب السرد الشعري والنثري.
– ٤بروز حركة الفعل السردي «كان» في السرد الشعري.
– ٥ بروز دور العنوان.
– ٦ تصدر المواقف المسرحية في السرد الشعري.
– ٧ جريان حوار السرد النثري وأدواته في إيقاع شعري، تفعيلي موزون في بعض الأحيان.
– ٨ أدبية الإعلان وشاعريته في عصر سمته الأولى هي الإعلان.
– ٩ تداخل أجناس دخيلة: أدبية وغير أدبية في السرد.
– ١٠ تقارب السرد مع: الأسطورة والملحمة والمسرحية.
– ١١ استعارة تقنيات السينما والسيناريو ولغتهما الإشارية والرمزية.

بل طغيان فن جديد هو الدراما التلفزيونية المرئية بعد ظهور الدراما الإذاعية المسموعة فقط بفعل انتشار ثقافة الصورة.

– ١٢ علو صوت النجوى الداخلية أو المونولوج.
– ١٣ توافر عناصر البناء السردي في النص الشعري.

ومثلت تلك السمات وغيرها خطوات تمهيدية أتاحت للسرد أن يضيف إلى مملكته النثرية مملكة أخرى شعرية وللشعر أن يضيف إلى مملكته أخرى نثرية لا لأن العصر عصر الرواية، كما يتردد لدى البعض فإن العصور تأبى على التصنيف الأدبي، وإنما يرجع الأمر إلى أن الشعر أضاف إلى تاريخه العريق «ديوان العرب وسجل مآثرهم» أضاف تقنية جديدة تمثلت في السرد الشعري السائد، لنرى «القصيدة السردية» كاملة الأركان السردية، ولنرى الشعرية المهيمنة على السرد النثري في قالبي الرواية والقصة القصيرة وفوق هذين المظهرين لا يزال التصنيف النوعي قائماً على أساس التمازج والتراسل والتبادل لا على أساس الإلغاء والمحور وإذابة الحدود والفواصل ليبقى الشعر والنثر ومعهما وليد جديد هو «السرد الشعري» أو «الشعر السردي» وهذا ما أتوقع تطوره في المستقبل إلى حالة من الاندماج والانصهار في «نوع جامع» على النحو الذي لا يمكن تصور تشكله النهائي الآن.

افتتاح المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية

■ القاهرة: تحت عنوان «اللغة العربية ومؤسسات المجتمع المدني» افتتح د.عمرو عزت سلامة وزير التعليم العالي المصري أمس المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية، في دورته الـ٧٧ بالقاهرة، ويستمر لمدة أسبوعين.

أشار د.سلامة في كلمته بالافتتاح إلى أن هذه الدورة للمؤتمر تأتي في وقت تشهد فيه مصر والدول العربية تحولات تاريخية كبرى من التغير والحرية، لافتا إلى مشاركة حاشدة لأساتذة اللغة العربية في مصر والعالم العربي لبحث مستقبل اللغة العربية بهدف إعداد توصيات تساهم في إعلاء شأنها.

وذكر د. محمود حافظ رئيس مجمع اللغة العربية إن المؤتمر يناقش في دورته الحالية قضية هامة وهي علاقة اللغة العربية والمجتمع المدني، معتبرا أن هناك صلة كبيرة ووثيقة بينهما، مشيراً إلى تطلع المؤتمر لما تجود به العقول النيرة لعلمائنا في إيجاد الحلول لتصحيح المسار.

وخلال الافتتاح ألقى الدكتور عبدالهادي التازي من المغرب كلمة الوفود العربية المشاركة في المؤتمر، حيث أكد فيها أن مصر دولة قوية سوف يظل دورها باقيا للأبد، وأن مجمع اللغة العربية بالقاهرة يبذل ما في جهده للنهوض باللغة العربية.

ومن جانبه طالب الشاعر فاروق شوشة الأمين العام لمجمع اللغة العربية المؤسسات الإعلامية والصحافية في العالم العربي بالالتزام باللغة العربية الصحيحة وعدم إفساح المجال للهجات المحلية؛ لأن ذلك يؤدي إلى تفكيك المجتمعات العربية وإضعاف اللغة العربية، كذلك طالب بالقضاء على ما وصفه بـ «التلوث اللغوي» القائم الآن وإقامة يوم عالمي للاحتفال باللغة العربية في جميع الدول العربية.

يذكر أنه يشارك بالمؤتمر أعضاء مجمع اللغة العربية من مصر والدول العربية والمراسلين الأجانب، بالإضافة إلى علماء في اللغة والأدب ومختلف العلوم من مصر وخارجها، ويتم خلاله مناقشة العديد من القضايا مثل موقع اللغة العربية في الحياة اليومية للمجتمعات العربية، وثقافة اللغة العربية الصحيحة بين أفراد المجتمع، ودور المسؤولين في نشر اللغة العربية في مؤسساتهم وتنميتها، وكذلك دور الوحدات المحلية في دعم اللغة العربية، بالإضافة إلى تجارب الدول المختلفة في التعامل مع لغاتها القومية حفظا ونشرا وتنمية.

«باعتقادي ليس إلا»..!

إليه إن أشقى وإن.. يبقى وطن ! — **وضّاح مُزيّد**

أمُعْتَقِدٌ بها حد العبادهْ ؟
وأنتَ هناك أحلامٌ مبادهْ
أراك ميمماً ترنو إليها
وفي كفيك معولها شهادهْ
تبادلها الغرام وأنت أدرى
بأن التيه أولهُ سعادهْ
كأنكَ في المقام على يقينٍ
من التقوى تعاشرها جوادهْ
هنا تغفو ،هنا تبدو..وأخرى
بسقف الغيب طائرها جرادهْ
على ذات الزمان تطلُ،تدنو
وفي دمها الغياهب مُستعادهْ
مآربها الوسيعة ليس إلا
مآربها الكراسي والسيادهْ

لها صوتٌ من الفولاذ ما إن
ترتلُ فيك آيات البلادهْ
فمن أدنى الجنوب تلوحُ ناراً
إلى أقصى الشمال تشبُ (شادهْ)
كواعبها الجبال مراهقاتٌ
كأن مرامها في السفكِ عادهْ
فمن بابٍ إلى بابٍ تنادي
شوارعها الغبية بالزيادهْ
فما بلغتْ مآربها مراداً
ولا طعمت مطامعها ريادهْ
ولا شهدت أناملها حصاداً
ولا حصدت إرادتها إرادهْ

أمعتقدٌ..وقال:بها شفاهٌ
إذا عزفتْ بي المعنى أجادهْ
تطالبني هناك وما سواها
يطالبني بتشريدي إفادهْ
كأن بها المنى حيث الأماني
بشاهقه تضاجعها الإبادهْ
أناختْ بالجهات السَمر تُفتي
إذا سقطت هناك تكُ شهادهْ
أمعتقدٌ.. وراح بنصف كفٍ
يلفُ بجيدها الدنيا قلادهْ
ويخلقُ في البلاد الأم منفىً
ليعزفَ في فمِ المنفى بلادهْ

Mozayed10@yahoo.com

إصدارات ثقافية

نحو إصلاح منظمة الأمم المتحدة لحفظ السلم والأمن الدوليين

■ صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «نحو إصلاح منظمة الأمم المتحدة لحفظ السلم والأمن الدوليين» ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه (٩٥) للدكتورة فتيحة ليتيم.

وجاء في تعريف الكتاب ما يلي:

تجيب المؤلّفة فتيحة ليتيم، في مجمل فصول الكتاب، عن الإشكالية الرئيسية التالية: إذا كانت التطورات التي عرفها النظام الدولي بعد الحرب الباردة، وإلى غاية اليوم، قد أثّرت في أداء وفعالية منظمة الأمم المتحدة في ممارسة أدوارها وتحقيق أهدافها، فهل يمكن، إذن، النهوض بالمنظمة وتفعيلها من خلال ما هو مطروح من مشاريع ومقترحات لإصلاحها؟ أم أن هذه المشاريع هي من الطموح، ما يجعلها تصطدم بواقع دوليّ معقّد، يصعب معه إجراء تغيير فعّال وجدّي للمنظمة، بما يناسب التطورات الدولية الراهنة.

وترى المؤلّفة أن منظمة الأمم المتحدة باتت تعيش اليوم عدة أزمات سياسية هيكلية، مالية وإدارية، شكّلت في المحصّلة جملة المبررات الموضوعية التي تحتّم إصلاحها من أجل تعزيزها والنهوض بها.

لذا، فإن إعادة النظر في ميثاق الأمم المتحدة أصبح ضرورة، ولا سيما إصلاح ما يتعلّق بتشكيل مجلس الأمن الدولي.

وتعتقد المؤلّفة، أن مستقبل «المنظمة» يبقى إلى حدّ كبير مرتبطاً بمستقبل النظام الدولي، وما ستؤول إليه توازنات القوى فيه، ونظرة هذه القوى إلى الدور الذي يفترض أن تؤديه المنظمة في مواجهة التحديات السياسية والاقتصادية والأمنية المختلفة.

يقع الكتاب في ٣٥٢ صفحة.

براديغما جديدة لفهم عالم اليوم

■ صدر حديثاً عن المنظمة العربية للترجمة كتاب: «براديغما جديدة لفهم عالم اليوم» تأليف آلان تورين، ترجمة الدكتور جورج سليمان.

وصف الغربُ الواقع الاجتماعي وتمثّله، في القرون الأولى من تحديثه بمصطلحات سياسية هي: الفوضى والنظام، والملك والدولة، والشعب والثورة، ثم كانت الثورة الصناعية فتحرّرت الرأسمالية من السلطة السياسية، وبدأ التفكير والعمل، في مجال هذه السلطة، اعتماداً على براديغما اقتصادية واجتماعية جديدة كما بدأ الحديث عن طبقات وثورات وتفاوتات اجتماعية وإعادة توزيع.

أما اليوم، في عصر الاقتصاد المعولم والفردانية المنتصرة، فقد شظّت العولمة أنماط المجتمعات القديمة. وإذ أضحى كل منا أسير شبكة الإنتاج والثقافة الجماهيرية راح يجاهد من أجل الإفلات منها وبناء ذاته، باعتباره فاعلاً لحياته الخاصة. إن البراديغما الجديدة هي براديغما ثقافية، كما تشهد على ذلك تساؤلات عصرنا الكبرى: ما موقع الأقليات؟ هل للجنسانية موقع مركزي؟ هل هو زمن عودة الأديان؟...

وكما هي الحال دائماً مع آلان تورين، فإن الحرص على إعطاء صيغة نظرية لممارساتنا الاجتماعية، تثريه، هنا، الحياة كما تعاش بحيث تحيل الأفكار الواردة في هذا الكتاب إلى التجارب الأكثر يومية في العالم المعولم الذي بتنا نتطور فيه.

إنه مرجع في غاية الأهمية.

• آلان تورين (١٩٢٥–....): عالم اجتماع فرنسي شهير. من مؤلفاته:

Penser autrement (٢٠٠٦)، Le monde des femmes (٢٠٠٧)، Après la crise (٢٠١٠).

• د. جورج سليمان: دكتور في الفلسفة. من ترجماته الصادرة عن المنظمة العربية للترجمة: لغات الفردوس، تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، أبحاث في النظرية العامة في العقلانية.

يقع الكتاب في ٣٨١ صفحة.

سادة الفكر

■ «سادة الفكر» هذا هو عنوان الكتاب الذي يقدمه الصحافي والفيلسوف الفرنسي «روجيه بول دروا» عن «٢٠ فيلسوف ومفكر صنعوا القرن العشرين»، كمل يقول العنوان الفرعي للكتاب.

إن المؤلف يقوم برسم المسار الفكري والشخصي لهؤلاء الذين يعتبرهم منارات الفكر في القرن الماضي. إنهم ساهموا كما يصفهم في المقدمة بإلقاء الضوء على المشاكل الجوهرية لعصرهم وساهموا بفعالية في نقاشات القرن. هكذا يبدو بعضهم بمثابة «أسياد الحقيقة» ويبدو آخرون كـ «سادة الفضيلة التاريخية»، والبعض لم يكونوا أقل من «سادة فن العيش».

ونفهم عن الفيلسوف «ايمانويل لوفيناس» أنه من مواليد ليتوانيا وتوفي في باريس عام ١٩٩٥. وينقل المؤلف بداية عنه كتابته في عمله الشهير الذي يحمل عنوان «الحريّة الصعبة» ما مفاده عن حياته: «إنها مسكونة بالحقد وبذكريات الرعب النازي». ويضيف أنه يمكن قول الشيء نفسه عن «فكره». ويشير المؤلف: «لم يكن هدفه المركزي هو فهم كيف أمكن التوصل إلى سلوك النازية، ولا توضيح السمات التي تتفرّد بها هذه البربرية الجديدة، لكنه هدفه بالأحرى هو تثبيت البعد الإنساني لدى البشر وإعادة التأمّل بالمنظومة الأخلاقية».

أما سيغموند فرويد، فيؤكد المؤلف لديه على مقولة «إذا لم تكن هناك إمكانية للرؤية الواضحة المطلقة، فإننا نريد على الأقل أن نرى بوضوح في الظلمات». كما يؤكد القول أنه رغم ما وجهه فرويد من انتقادات صريحة أو ضمنية للفلسفة فإنه «يستحق بشكل مشروع مكانه بين الفلاسفة الذين صاغوا الفكر في القرن العشرين». ذلك أنه رغم نقده للفلاسفة، «قرأهم» بعناية و«استلهم» منهم. ثم يرى أنه بفضل «فرويد» أصبحت «انفعالاتنا» قادرة على أن تفعل «دون وعي منّا». وهذا ما يعتبره المؤلف «ثورة في طريقة تصوّر الوعي، وفي الفكر نفسه».

و«مارتن هايدغر»، الفيلسوف الألماني، هو أحد الذين يرى بهم المؤلف «أسياد الفكر» في القرن العشرين. هذا خاصة في طرحه لسؤال جوهري قديم، جرى نسيانه منذ زمن طويل، ويتعلق بـ «معنى الوجود»، الذي كان قد طرحه مفكرو اليونان القدامى. ومن خلال طرح هذا السؤال سعى «هايدغر»، كما تقول التحليلات المقدّمة، إلى «تجاوز المأزق التي يطرحها الزمن الذي نعيش فيه».

وتحظى الفيلسوفة «حنّه ارنت» بمكان لها بين «سادة الفكر» في القرن الماضي. أما ميزتها الأساسية فيحددها المؤلف في القول أنها «لم تتوقف أبدا عن إرادة الفهم». ثم إنها جمعت دائما بين القول والفعل حيث كانت تعتبر أن «الكلمات الصائبة التي يتم قولها في اللحظة المناسبة هي أفعال وليست مجرّد ألفاظ». هكذا دفعتها قناعاتها للهجرة أولا من ألمانيا إلى فرنسا عام ١٩٣٣ لتصبح «مواطنة أميركية» عام ١٩٥١ وتنشر بعد عدة سنوات، وتحديدا في عام ١٩٥٧ ، كتابها الشهير: «أصول الشمولية–التوتاليتارية» بثلاث مجلدات.

وفي الصفحات المكرّسة لـ «ألبير كامو» فيلسوف «العبث» الشهير، يرى المؤلف أنه «عبر قراءة كامو يفهم المرء بشكل أفضل الأسباب التي تدفع نحو قيام تمردات جديدة بمواجهة أشكال عبث جديدة. ويتساءل لماذا لا تنفجر اليوم تمرّدات أكثر قوة من أي يوم مضى؟ ذلك بتعاظم أشكال عدم المساواة وبتكثيف كل أشكال الرقابات وشيوع السخافات التي يطلقون عليها صفة ثقافة، وانتشار اللامبالاة المعممة. هذه الأمور كلها تتغلغل أكثر فأكثر في جميع زوايا العالم الذي نعيش فيه». وينقل المؤلف عن فيلسوف العبث «كامو» قوله: «أنا لست فيلسوفا (...). ما يهمّني، هو معرفة، كيف أحكم تصرّفي».

ويرى المؤلف في الفيلسوف «جان بول سارتر» أحد «أسياد الفكر المعاصرين». أما «امتيازه» فيحدده بكون أنه «لا يعطي تعليمات ولا نصائح». ولا يريد أن يحدد «كيف ينبغي أن نفكر» و«لا كيف ينبغي أن نتصرّف». بل «إننا نقرر وحدنا ولا عذر لنا فيما نقرره». ويشير المؤلف أن سارتر سعى باستمرار إلى أن «يحتكم كل إنسان إلى ضميره». وأن إجابته الوحيدة، إلى كل من يطلب مشورته مهما كانت المسألة المطروحة عليه هي: «أنت صاحب القرار ووحدك المسؤول عن الإجابة المقدمة». المهم عند سارتر هي «الحرية». يقول المؤلف: «هذه الحرية الكاملة تترتب عليها مسؤولية كاملة أيضا. ولا يمكن للإنسان أن يختبئ وراء أي شيء».

ومن «سادة الفكر» في القرن العشرين يقدّم المؤلف ميشيل فوكو. ويرى أن هذا الفيلسوف كان «يسابق» الموت في سنواته الأخيرة. وينقل عنه قوله في محاضرة له عام ١٩٨٤، عام وفاته، ما مفاده: «كنت مريضا، مريضا جدا». ثم أنهى سلسلة محاضراته في «الكوليج دوفرانس» بجملة: «إن الوقت غدا متأخر جدا». لقد توفي فوكو بعد ذلك بأسابيع قليلة. ربما أنه أراد لمحاضراته الأخيرة أن تكون بمثابة «وصيّة»، كما يقول المؤلف.